علي حيدر *

«من الواقعية الدينية إلى المسيانية: الصهيونية الدينية وحرب الأيام الستة»

اسم الكتاب: «من الواقعية الدينية إلى المسيانية: الصهيونية الدينية وحرب الأيام الستة»،
المؤلفان: آفي سَغي ودوف شفارتس،
إصدار دار النشر كرمل، القدس، ومعهد شالوم هارتمن ٢٠١٧،
«سلسلة كتب التأويل والثقافة- السلسة الجديدة»،
عدد الصفحات: ٢١٠

مدخل

يستطيع المتابع للحراك السياسي والاجتماعي والعسكري والإعلامي والقانوني في إسرائيل، في السنوات الأخيرة، أن يلحظ بوضوح حضورًا مكثفا لأشخاص محسوبين على الحركة الصهيونية الدينية المتطرفة في مواقع ومناصب رفيعة ومهمة في أجهزة الدولة المتعدّدة، تجعلهم يتبوّأون مواقع صنع القرار، وتخولهم اتخاذ قرارات حاسمة، وتتيح لهم فرض قضايا وموضوعات على جدول الأعمال العام.

ومن الجدير بالذكر أن هذا التحول الخطير، (لا سيّما نتيجة لتعمق واتساع مميزات الحركة المسيانية والخلاصية وقيادتها للمشروع الاستيطاني الاستعماري بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧ واحتلال الأراضي الفلسطينية في القدس والضفة والقطاع) أشغل العديد من الباحثين والصحافيين والمفكرين الإسرائيليين وغيرهم، محاولين فهم وتحليل التحولات والتغييرات التي شهدتها هذه الحركة وعرض أسبابها، وتبعاتها ونتائجها ورموزها وديناميكياتها الداخلية وعلاقاتها مع الفئات والأحزاب الأخرى داخل المجتمع الإسرائيلي.

من بين الكتب المهمة حديثة الصدور التي تبحث التحولات الدراماتيكية التي شهدتها الصهيونية الدينية على أثر حرب

* محام وباحث في العلوم السياسيّة

لم تعد الحركة هامشيا وذيلا لقوى أخرى، وإنما أصبحت حركة مركزية ذات تأثير سياسي واجتماعي وقومي ودولي وحاضرة في مجمل مجالات الحياة، في الجيش والمنظومة الأكاديمية والوظائف المركزية في القطاع العام.

حزيران١٩٦٧، كتاب المؤلفين بروفسور آفي سَجي وبروفسور دوف شفارتس : «**من الواقعية الدينية إلى المسيانية: الصهيونية الدينيّة وحرب الأيام الستة**». يدرِّس بروفسور سَجي في قسم الفلسفة في جامعة بار ايلان وقد أسّس فيها برنامج دراسات التأويل والثقافة، أما بروفسور شفارتس فيدرِّس في قسم الفكر الإسرائيلي في جامعة بار إيلان وهو رئيس معهد دراسة الصهيونية الدينية في الجامعة نفسها. المؤلفان باحثان زميلان في معهد شالوم هارطمان في القدس، ولهما مئات المقالات والكتب في مجالات الفكر اليهودي والفكر عمومًا. ومن الجدير بالذكر أيضا، أنهما تتلمذا وعملا في مؤسسات محسوبة على التيار الصهيوني الديني ويحظيان بمكانه مهمة في المجتمع والأكاديميا الإسرائيلية، ويحملان توجهات نقدية بشأن التحولات في الحركة ولكن من داخلها. مع ذلك، لا يود الكاتبان كما يصرحان في مقدمة الكتاب «تقديم شهادة، وإنما إجراء بحث نقدي».

يشتمل الكتاب على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وبعض الملحقات. ويتلخّص ادعاؤه المركزي في أن حرب حزيران ١٩٦٧ أدّت إلى نضوج توجّه ناقض القيم المؤسسة والأساطير الأساسية للصهيونية الدينية الكلاسيكية.

يستعرض الكتاب المواقف السياسية واللاهوتية للقيادات السياسية والروحية للصهيونية الدينية فيما يتعلق بالحرب. ويزعم بأن حرب «الأيام الستة» غيّرت مجمل طرق تعاطي الصهيونية الدينية مع الواقع السياسي والاجتماعي، إذ قادت هذه إلى تحرّر الحركة من كونها محسوبة على قطاع أو وسط معين ومن التصوّر المتدني لذاتها، كما كان في الماضي. ففي حرب حزيران، جرى لقاء بين القوة ذات الأساس المسياني وبين جهاز التعويض عن السمعة المتردّية للصهيوني المتدين، وأصبح حدثًا مؤسسًا للحركة الصهيونية الدينية.

ميّزت الحرب المذكورة بين الجيل الشاب وبين مخضرمي الحركة الذين قادوها منذ قيام الدولة، أو قبل ذلك. كما غيّرت الحرب الوعي الديني والسياسي للصهيونية الدينية. وكان من نتائجها أن انهارت منظومة التاريخ الواقعي، التي وجهت الحركة منذ نشأتها، وحل مكانها « التاريخ المقدس». أصبح هذا التوجه الجديد للتاريخ البرنامج العملي، السياسي والمحسوس للحركة، وقد أسقط هذا التوجه ذاته على تخيّل الجسد وخطاب التواضع والاحتشام والجنسانية في إطار الصهيونية الدينية. فمنذ تلك اللحظة، تحوّل الشيء الذي كان محط قرار أو قيمة ذاتية وشخصية إلى أمر إلهي- رباني، ينفذ من قبل كهنة ورجال دين ، رعاة الطائفة.

متى ولماذا جرى التحوّل من حركة هامشية إلى حركة مركزيّة؟

يقترح الكتاب تبصرات جديدة لمجمل الممارسة والسلوك السياسي والاجتماعي والديني للصهيونية الدينية والتي لها أبعاد وتأثيرات واضحة على المجتمع الإسرائيلي اليوم. لقد كان لحرب «الأيام الستة» تأثير بالغ على المجتمع الإسرائيلي قاطبة كما كان لها تأثير خاص وكبير وحاسم على الصهيونية الدينية. وإذا ما أجريت مقارنة بين الصهيونيين المتدينين قبل الحرب وبعدها، يمكن القول بأنها أحدثت تغييرات جوهرية وجذرية، فالفروق والاختلافات بين الأجيال واضحة للعيان. كانت شخصية اليهودي الصهيوني المتدين في ستينيّات القرن الماضي هامشية وتابعة لحركة العمل، وكان هدفها الوحيد المحافظة على المصالح الدينية العينية الخاصة لأبناء هذه المجموعة، ولم يكن لأبناء هذه المجموعة تأثير سياسي، ولم تساهم في تشكيل جدول الأعمال العام في إسرائيل. كانت سمعة ممثليهم سيئة، حيث كانوا اشخاصًا متشبثين بمقاعدهم تورّط بعضهم بقضايا فساد، وكان الوعي الصهيوني الديني في الحضيض، في تلك الفترة. إضافة إلى ذلك، كانت الصهيونية الدينية الإسرائيلية جزءًا من المجتمع الإسرائيلي من حيث الملبس والموضة وشكل الحياة ولم يختلفوا كثيرا عن مجمل المجتمع اليهودي في البلاد، ولم تكن «القبعة الدينية المطرزة» بارزة، وكان لباس النساء عاديا، والجميع قرأوا نفس الكتب وسكنوا في نفس البلدات والضواحي والحارات، وأحيانا غنى الرجال والنساء معا وزاروا نفس المواقع الترفيهية والمسابح ولم ينعزلوا، وقد مثّلهم حزب

ويصل الكاتبان إلى استنتاج مفاده أن الحرب ميزت بين جيل المخضرمين المعتدل والمتردد والمتزن الذي ولد خارج البلاد وهاجر إليها ونشط في السياسة لفترة طويلة قبل اندلاع الحرب، وبين الجيل الشاب الذي استجاب إلى روح اللاهوت الجديد. كل واحد من المعسكرين اتهم الآخر بتبني نموذج التقلص والانحسار وضيق الرؤية وغياب الأفق

المفدال في الكنيست.

ولكن الحركة الصهيونية الدينية الآن تغيّرت بشكل جوهري، فقد اختلف طابعها وواجهت ثورات وتحولات وتناقضات، ونشأ جيل جديد مختلف تماما عن الأجيال السابقة. لم تعد الحركة هامشًا وذيلًا لقوى أخرى، وإنما أصبحت حركة مركزية ذات تأثير سياسي واجتماعي وقومي ودولي وحاضرة في مجمل مجالات الحياة، في الجيش والمنظومة الأكاديمية والوظائف المركزية في القطاع العام. ولم يكن هذا الحضور هادئا، وإنما حضورًا مدويًا ومسموعًا، وتحاول الحركة وبقوة فرض جدول أعمالها وأجندتها ورؤيتها. وحصل أيضا تحول في اللباس فهو متنوع ما بين اللباس الحريدي- المتزمت واللباس الحداثي المتمدن، وتنوّعت الكنس، كما أصبحت قضايا الجسد والجنسانية مواضيع مركزية وذات أهمية. لم يأت هذا التغيير صدفة بل نتاج لسيرورة استمرت أكثر من ثلاثة عقود.

وهنا يُسأل السؤال: لماذا جرى هذا التحول؟ من حركة هامشية وتابعة إلى حركة تتصدر المشهد؟ لا تقتصر أهمية هذا السؤال على فهم التحولات التي حدثت للصهيونية الدينية فحسب، بل هو مهم من أجل فهم مستقبل إسرائيل أيضا، لأن الحركة الصهيونية الدينية هي إحدى المجموعات المركزية إن لم تكن الأكثر مركزية لترسيم حدود البلاد.

يقول المؤلفان للإجابة على هذا السؤال:» إن الوتد الذي جرى حوله هذا التغيير هو حرب الأيام الستة التي لم تكن حربا عادية، والتأويل الذي التصق بها وبنتائجها بلور وعيًا دينيًا وسياسيًا وثقافيًا جديدًا، إذ لم تكن الحرب حدثًا فقط وإنما تحولت أساسًا لوعي جديد يُغذي حياة أبناء المجموعة حتى اليوم». ويضيف المؤلفان أنه «ككل حركة قومية سياسية تحدث فيها تيارات وعي في العمق، تطفو أحيانًا على السطح وفي أحيان أخرى ُتكبت، فالعامل المسياني حاضر في الصهيونية الدينية، أحيانا يختفي من الحياة العادية وأحيانا على العكس من ذلك».

يحاول المؤلفان تفسير حرب «الأيام الستة» من وجهة نظر بلورة الوعي الصهيوني الديني، ويعتقدان أن الحرب أدّت إلى «التحرر» الفجائي والفوري لمجموعة كبيرة من أبناء المجموعة وثبّتت، على نحو حاد ووحشي، الفجوة بين الجيلين في قيادة الحركة والحزب اللذين مثلهما (المفدال) وأزاحت الوعي من تاريخ ُمعلمن إلى تاريخ مقدس، وأولت اهتماما للحيز الجسدي ومهّدت الطريق لتحول عميق في الوعي الصهيوني الديني.

الكتاب متعدد المجالات ويعرض تأثير الحرب على المجتمع الصهيوني الديني بمستويات متعددة. في المستوى الأول: يصف ردود فعل قادة المعسكر إبّان الحرب والشكل الذي استوعبت فيه الحرب في إسرائيل بعد انتهائها. في المستوى الثاني: يعرض أفكارًا حول معاني الحرب في الوعي والفكر الصهيوني الديني، وفي المستوى الثالث: يفحص الجوانب الاجتماعية والثقافية للمجتمع الصهيوني المتدين على إثر الحرب وخلفيتها.

ردود فعل قادة المعسكر الصهيوني الديني إبان الحرب وبعدها

لقد جاء في الفصل الأول تحت عنوان:» ستة أيام عابرة للأجيال: الحرب والقيم» أن الحرب لم تخلق خطابًا صهيونيًا متدينًا جديدًا بالكامل، وإنما ثبّتت وفتحت فرصة لتسارع كبير للتوجهات التي تراكمت من قبل. فقد أبرزت الوعي بالاضطهاد والإحباط الذاتي وعدم الرضا الذي شعر به المعسكر الصهيوني الديني، وفي المقابل أبرزت وعيًا مسيانيًا قويًا ومتحمسًا. قادت الحرب إلى رفع معنويات المعسكر وساعدت في ترميم التصوّر الذاتي المتردي والمنخفض للصهيونية المتدينة في تلك المرحلة، ويمكن القول إن الحرب أماطت اللثام عن جوانب كانت مخفية قبل ذلك. ويصل الكاتبان إلى استنتاج مفاده أن الحرب ميّزت بين جيل المخضرمين المعتدل والمتردد والمتزن الذي ولد خارج البلاد وهاجر إليها ونشط في السياسة لفترة طويلة قبل اندلاع الحرب، وبين الجيل الشاب الذي استجاب إلى روح اللاهوت الجديد. كل واحد من المعسكرين اتهم الآخر بتبني نموذج التقلص والانحسار وضيق الرؤية وغياب الأفق. وفي حين ادعى الجيل المخضرم أنه مشغول بالمصالح الروحية والدينية الشاملة وأنه قدّم مصالح ضرورية للدولة، اتهم الجيل الشاب بأنه

منشغل بالسياسة فقط من خلال تقديم سياسات الاستيطان، وأنه يهتم بجمهور معين فقط. في الوقت نفسه، ادعى جيل الشباب أن المخضرمين عملوا في السياسة الضيقة فقط في حين أنه، أي جيل الشباب، يعمل من أجل خدمة سياسات صهيونية دينية في كل مجالات الحياة، وبأنه أحيى من جديد مفهوم « دولة التوراة». كما ادعى جيل الشباب أيضا أن المخضرمين كانوا اتباعًا بينما جيل الشباب مبادر وقائد.

يقول المؤلفان بأن المخضرمين عرفوا التمييز بين الايمان العميق وبين النشاط الذرائعي وكانوا حذرين، لا سيّما، تجاه ردود فعل المجتمع الدولي، بينما عمل جيل الشباب على تحقيق وقائع استيطانية وتحقيق الصهيونية. إن الحرب، عدا عن كونها وسّعت الفجوات بين الجيلين، أسّست وخلقت شرعيه لسلطة روحانية وسياسية متمثلة بشخصية الحاخام المتطرف تسفي كوك، الذي أصبح المفسر للأحداث، وقد خضعت لسيطرته وسيطرة تلاميذه حركة «غوش ايمونيم» العنصرية الاستيطانية المتطرفة التي استمدت سلطتها الدينية واللاهوتية منه. ونستطيع أن نلاحظ مما ذكرنا آنفا التوتر بين الجيلين في جدلية العلاقة بين التراث والتجدّد فيما يخص اللاهوت والسلطة الدينية المتطرفة.

أضف إلى ذلك أن الحرب كشفت عن تمايز عميق بين الجيلين في الوعي والصراع بين الرؤى. فقد رأى الجيل الشاب أن الحرب تحقيق للمسيانية، بينما نظر إليها المخضرمون كمغامرة شعبوية. وما اعتبره الجيل المخضرم حذرًا واعتدالًا كان في منظور الجيل الشاب ذلا واذدنابا لحركة العمل ومباي التاريخية. اعتقد الجيل المخضرم أنه يجب عدم ادخال اعتبارات لاهوتية عند بلورة المواقف السياسية، فالسياسة منوطة بتنازلات ومحادثات سلام.... إلخ، ويجب القلق على وضع الشعب الإسرائيلي الديني والروحي كله. من الناحية الثانية، رأى الجيل الشاب أنه يجب عدم الخضوع للواقع الملموس وأن الحرب أثبتت أن لحظة تحقيق المسيانية اليهودية للصهيونية الدينية قد أتت، وأنه يجب الانتقال من القلق إلى العمل والتأثير وبلورة الواقع، وبذلك برز تياران الأول متصل والثاني متقطع.

وفي معرض فهم ردود المعسكرين على الحرب، يمكن الإشارة أيضا إلى أن المخضرمين أكدوا على خطاب القيم الذي كان مشتركًا للعلمانيين والمتدينين، ورأوا الحرب تعبيرًا تراجيديًا عن المصير اليهودي، واعتبروا احتلال القدس و«توحيدها» قيمة مؤسسة لشخصيتهم القومية. في المقابل، أراد الجيل الشاب ترسيخ خطاب جديد مرتبط باللاهوت، خطاب لا يمكن نقله وتمريره لمن لا يؤمن بالمسيانية.

بين التاريخ الواقعي والتاريخ المقدس

في حين استعرض المؤلفان من خلال الفصل الأول المواقف المختلفة التي سادت لدى قيادة ومفكري الصهيونية الدينية تجاه حرب حزيران١٩٦٧، فقد خصصا الفصل الثاني الذي حمل عنوان «بين التاريخ الواقعي والتاريخ المقدس» لتحليل المفاهيم والمباني العميقة التي ارتكزت عليها المواقف المذكورة. فمن خلال هذا الفصل عملا على تحليل وفحص وتحري الدوافع المتعلقة بالبنية التحتية للسيرورات التي مرت بها الصهيونية الدينية على أثر الحرب.

يقول الكاتبان إن حرب حزيران أدت إلى بزوغ إدراك بأن الحرب أدت إلى إصلاح الوعي لذاته، فمنذ تلك اللحظة أصبح بمقدور المؤمن، ولا سيّما المؤمن الصهيوني، إدراك «عودة الله إلى صهيون». منذ تلك اللحظة أصبح الحدث التاريخي الواقعي لا يعكس المعنى العميق للتاريخ بل أصبح التاريخ تاريخًا مقدسًا. وبذلك تشكل حرب الأيام الستة الحد الفاصل الذي منه يعود التاريخ ليكون تاريخًا مقدسًا، يدار من قبل الله وليس البشر؛ والبشر هم مجرد وسائل بيد القدرة الإلهية.

بعد الحرب، حدث تحول دراماتيكي لدى الشباب وظهر الخطاب المسياني. منذ اللحظة، لا يعيشون تجارب تاريخية واقعية ولكن هم رسل الله ومنفذو أوامره في الواقع، فالتاريخ مقدس. (في هذا السياق يعرض المؤلفان وجهة نظر مناقضة لدى المتدينين المتزمتين –الحريديم حول التاريخ المقدس، فحسب تاريخهم المقدس هم مطالبون بالانتظار حتى يأتي الخلاص والذي من خلاله يعود شعب إسرائيل إلى أرضه). تعمق المؤلفان من خلال هذا الفصل في تفسير نظرة الصهيونية الدينية تجاه التاريخ المقدس وعرضا وجهات نظر متنوعة لمفكرين ورجال دين، وخصوصا وجهتي نظر الحاخام كوك الاب والحاخام سلوبتشيك. وقد كان تأثير كوك أكبر. كما تعمقا في جهاز التعويض والتعددية الثقافية وشبكة العلاقات وتعقيدات ما بعد الطبيعة وتكوّن التاريخ المقدس والتبعات الأخلاقية التي بموجبها تم تبني طرح جديد؛ لا يوجد له سابقه في التراث اليهودي؛ هو أن الأخلاق هي أمر إلهي. بمعنى إن الاخلاق متعلقة بالله فقط وهو الوحيد الذي يؤسس لها. وقد ربط بعض الحاخامات بين هذا النوع من الأخلاق وبين الاستيطان".

ويخصص المؤلفان في نهاية الفصل صفحتين فقط للخطاب الراهن، ويشيران بعكس ما قدماه إلى أن التاريخ المقدس يشهد تراجعا، وأن التاريخ من صنع الإنسان، وأن الإنسان هو المفسر للتاريخ وهو الذي يعطيه معنى. ويضيفان أن هنالك خيبة

> **يفحص المؤلفان من خلال الفصل الثالث، من زوايا مختلفة، تطور الخطاب الجسدي، الجنسانية والتواضع والاحتشام في المجتمع الصهيونّي الديني حتى سنوات السبعينيات من القرن الماضي، وبالأخص مكانة الحرب في هذه السيرورات.**

أمل من التاريخ المقدس، وأنه أخذ بالانحسار على الرغم من أن الأغلبية من أبناء الصهيونية الدينية ما زالوا يتغذون منه، ولكن دون «الباثوس» الديني الذي أنتجه. ويقرّ الكاتبان بعدم وجود رؤية فلسفية فكرية توعوية تشكل بديلا له.

الحيز الجسدي والمسيانية

يفحص المؤلفان من خلال الفصل الثالث، من زوايا مختلفة، تطوّر الخطاب الجسدي، الجنسانية والتواضع والاحتشام في المجتمع الصهيوني الديني حتى سنوات السبعينيات من القرن الماضي، وبالأخص مكانة الحرب في هذه السيرورات، وقد شمل هذا الفصل نقاشًا متعدد المجالات العلمية- علم الاجتماع والأناسة والثقافة. في هذا السياق، يدعي المؤلفان أنه حتى سنوات السبعينيات كان خطاب الجسد والجنسانية في الصهيونية الدينية ضعيفًا وضئيلًا، وبالرغم من ذلك شهد انفتاحا وليس كبتا وتم قبول قيم سائدة في المجتمع الإسرائيلي. ولكن منذ أواسط السبعينيات بدأ يظهر خطاب يتقبل السلطة الدينية والتشدد والتحريم وإنتاج أنظمة قمعية تدار من قبل كهنة وحاخامات تتحكم بخطاب الجنسانية وتبغي إصلاح الإنسان وتحقيق خلاصه. هذا إضافة إلى ظهور شخصية المتدين المحارب البطل الذي يريد الترقي والاستيطان. وفي حين أسست حركة العمل الدولة فإن الصهيونية الدينية أسست المستوطنات، أما السبب وراء هذا التحول فهو التفاعلات الذي حدثت في الحيز اللاهوتي المسياني والسياسي العام.

تلخيص

يعالج الكتاب موضوعا غاية في الأهمية والراهنية، فالتحولات التي جرت في الحركة الصهيونية الدينية في السنوات الأخيرة خطيرة جدا، فهي حركة عنصرية متطرفة مسيانية استعمارية تلعب دورا مركزيا في السياسة والمجتمع الإسرائيليين، ولعل التجسيد لهذا الوضع هو حزب البيت اليهودي الذي ورث حزب المفدال، وهو الذي يمثّل المستوطنين ويقود عمليات الاستيطان ويقوم مؤيدوه بالاعتداء على الفلسطينيين. أضف إلى ذلك أن الوزراء الذين يمثلونه في الحكومة (وزراء التربية والقضاء والزراعة) يقومون بشكل مكثف بتقديم مشاريع قوانين وقرارات عنصرية ضد الشعب الفلسطيني على كافة أجزائه، كما أنهم شرسون في نقدهم تجاه المحكمة العليا ويعملون على إضعافها وتهديد مؤسسات المجتمع المدني، كما أنهم يستخدمون سياسات القوة والسيطرة والعداء ضد الشعب الفلسطيني وتجاه المجتمع الدولي، فالحزب لا يعترف بحق الشعب الفلسطيني في إقامة دولة مستقلة، بل لا يعترف أصلا بوجود شعب فلسطيني ويؤمن بمقولة «أرض إسرائيل الكاملة».

وكنا نتوقع من الكتاب التعمق في المرحلة الراهنة، استعراضها وتحليلها بشكل أوسع وأعمق، فإذا كان قارن بين جيل المخضرمين وجيل الشباب في الماضي، فإننا نشهد اليوم بروز جيل أكثر تشددا وتعصبا وتطرفا ودموية. بالإضافة إلى ذلك، فإن جزءا من الاستنتاجات التي استخلصها المؤلفان حول الصهاينة المتدينين يمكن إسقاطها على المجتمع الإسرائيلي قاطبة، فهو، بأغلبيته الساحقة، يمر بتغييرات وتحولات جذرية وجوهرية تجعله أكثر فاشية وعنصرية بقيادة الصهيونيين المتدينين.

وبالمجمل، يتيح لنا الكتاب الفرصة لمعرفة وفهم مجموعة مهمة ومهيمنة في المجتمع الإسرائيل،ي من خلال عرض نظري لمؤلفين ينحدران من هذا التيار.